مجلة بوابة الباحثين للدراسات والأبحاث
Researchers Gate Journal for Studies and Research
ISSN (Print): 3080-1354 ISSN (online): 3079-787X
Volume: 1, Issue: 1 2024

جدلية الوطن والمنفى في شعر الجواهريّ

The Dialectic of Homeland and Exile in Al-Jawahiri's Poetry

د. رائد الحلاق: عضو هيئة تدريسية، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة حماة، سوريا.

Dr. Raed Al-Halaq: Faculty Member, Arabic Language Department, Faculty of Arts, University of Hama, Syria.

raed.alhllaq@gmail.com

الملخص

وصل حال بعض الشعراء، لا سيما المحدثين والمعاصرين، إلى أن يعيشوا تجربة النفي بعيدا عن أوطانهم لأسباب متنوعة، غلبت عليها الدوافع السياسية. انعكس هذا النفي في أشعارهم التي صورت منفاهم بشيء من الألم والأسى، حيث عبروا عن معاناتهم وأسباب نفيهم أحيانا بشكل صريح وأحيانا آخر بالإشارة والتلميح.

ومع امتداد غربتهم، بدأوا ينظرون إلى أوطانهم من زاوية المنفى، فرأوها بهيئة المعشوق الذي يوقظ القلب شوقاً وحنينا ويستحضر في ذاكرتهم صورا دافئة من الماضي.

هذه حال الشاعر الذي اخترته موضوعا لدراستي، وهو محمد مهدي الجواهري. كان الجواهري مثالاً لشاعر شامخ ينتمي بروحه وأسلوبه إلى نخبة فريدة مثل امرئ القيس والنابغة وطرفة وأبي تمام والمتنبي والمعري، لكنه تميز بانتمائه إلى عصره الحديث. اتسم شعره بالصدق العاطفي والنفَس القوي القادر على التأثير، مع عذوبة في الأسلوب وصفاء في التعبير. هذا التميز ينبع من الثنائية التي سيطرت على حياته—ثنائية الوطن والمنفى—والتي هزّت أعماقه وأثارت توتره الداخلي حتى بلغ ذروته. هذه الثنائية كانت مصدر إلهامه كما كانت ملاذه، لترتقي روحه وينساب قلمه بمعزوفات شعرية خالدة تعتبر من أعظم إبداعات الأدب العربي في عصرنا.

الكلمات المفتاحية: الجواهري، الوطن، المنفى، الشعر العربي الحديث، الجدلية.

Abstract

The situation of some poets, especially modern and contemporary ones, reached a point where they lived the experience of exile far from their homelands for various reasons, predominantly political motives. This exile was reflected in their poetry, which depicted their exile with a sense of pain and sorrow, as they expressed their suffering and the reasons for their exile sometimes explicitly and at other times through hints and allusions.

As their exile extended, they began to view their homelands from the perspective of a stranger, seeing them as the beloved who awakens the heart with longing and nostalgia, and evokes warm memories from the past.

This is the state of the poet I chose as the subject of my study, which is Muhammad Mahdi Al-Jawahiri. Al-Jawahiri was an example of a towering poet whose spirit and style belong to a unique elite like Imru' al-Qais, Al-Nabigha, Al-Tirfa, Abu Tammam, Al-Mutanabbi, and Al-Ma'arri, but he distinguished himself by belonging to the modern era. His poetry was characterized by emotional sincerity and a powerful breath capable of influence, with sweetness in style and clarity in expression. This distinction stems from the duality that dominated his life—the duality of homeland and exile—which shook his depths and stirred his inner turmoil to its peak. This duality was both his source of inspiration and his refuge, allowing his spirit to soar and his pen to flow with immortal poetic compositions considered among the greatest creations of Arabic literature in our time.

Keywords: Al-Jawahiri, Homeland, Exile, Modern Arabic Poetry, Dialectic.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، أما بعد:

فقد آلت أحوال بعض الشّعراء وبخاصة المحدثين منهم والمعاصرين إلى النفي خارج أوطانهم لأسباب عدّة، غلب عليها الأسباب السياسية، فشفّ شعرهم عن تصوير منفاهم بشيء غيرِ قليل من الأسى، فصوروا المنفى وحالتهم به، وذكروا أسباب نفيهم مصرِحين تارة ومعرِضين أخرى.

ثم ما لبثوا أنْ صوروا أوطانهم بعدسة المنفى، فظهر الوطن بصورة المعشوق الذي يلهِب القلب شوقاً وحنيناً، ويفتّق الذاكرة صوراً من الماضي.

وبعدُ: فهذه حال شاعرٍ اخترتُه محطّ دراستي وهو محمّد مهدي الجواهريّ، وقد كان الجواهريُّ فرداً من رهطٍ شامخٍ، رهط امرئ القيس والنّابغة وطرفةَ وأبي تمامٍ والمتنبّي والمعرّي، ينتمي إليهم في شموخهم ولغتهم وفنّهم ولكنّه لا ينتمي إلى عصورهم. فكان شعره أنْ اتّسم بالصّدقِ وقوّة العاطفة والقدرةِ على التّأثيرِ والطبعِ السّمحِ مع أداءٍ واضحٍ وضوحِ النفسِ وصفائها، وهذا بفضلِ ثنائيّة الوطنِ والمنفى التي هزّتْ أعماقَه، ورفعتْ حالةَ التوتّرِ عنده إلى الأوجِ، وشكّلت له المنبع والملاذَ والملهِم، فشقّتْ روحُه وسالتْ قريحتُه بفرائدَ طويلةٍ كانت بحقٍّ من عيونِ الشّعرِ العربي في عصرِنا.

وعلى هذا فقد قام البحث على تمهيد عن الوطن والمنفى ضمنته لمحة موجزة عن الجواهري، ثم يمم النظر شطر أسبابِ المنفى، فذكر أنّ منها السياسيّةُ وهي الغالبة، ومنها ما هو نفسيٌّ، ومنها ما يرتبط بالمعيشة زمانياً ومكانياً، وقد رتّبها حسب الأهمية. ثم عرج إلى الوطن من وجهة نظر الشّاعر المنفي فبين انتماءه للوطن عن طريق ذكرِه الحنينَ لوطنه، وشكواه من ألمِ المنفى، وتصويرِه لماضي وطنه، وحلمِه الدّائم بالعودة. ثمّ ختم بالنّتائج.

تمهيد:

1- كلام في الوطن والمنفى:

لم يخل ديوانَ أيِ شاعرٍ من الحديث عن الوطن وإن تعدّدت الأساليب واختلفت الأغراض، لأن الوطن هو هويةُ الشّاعر ومصداق انتمائه.

فالشّاعر إذ يذكر وطنه يحقّقُ فكرة وجوده وارتباطه بأرضه. فالوطن في أبسط تعريفاته من لسان العرب هو (المنزلُ تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحلّه) (ابن منظور، 1997، ج 13، ص 451) وقد تتعقد النظرة إلى الوطن فيكون برأي كثيرين سكنَ الروح، فأيُّ مكان يستأنسه قلبك وترتاح له هو وطنك.

وقد تبرز صورةٌ أخرى للوطن مرتبطة بحرية الفكر، فأيُّ مكان يتيح لك أن تقول رأيك ويعطيك حرّيتَك هو وطنك، وإنْ كان ذلك متحصّلٌ في غير أرضك التي عشت بها.

وهنا نصل إلى نقطة التقاء الوطن بالمنفى، فالمنفى أيضاً بأبسط تعريفاته من اللسان: (نفى الشيء، تنفي نفياً تنحي... ويقال نفيت الرجل وغيره أنفيه إذا طردته... ونفي الزّاني الذي لم يحصن أن ينفى من بلده الذي هو به إلى بلدٍ آخر سَنَةً وهو التغريب) (ابن منظور، 1997، ج15، ص 336-337).

فقد عرف العرب المنفى إذن، ولكن بحدود ضيقة ليس كما نفهمه نحن بأن المنفى هو بقعة اختارها شخصٌ للنجاة بحياته أو هي أرض اختيرت عن غير إرادة صاحبِها لكي يقضي فيها باقي عمره.

فالنفي بطبيعته قسريٌّ حتّى لو كان باختيار المنفِي، فليس فينا من يختار أن ينفي نفسه إلا حين يضيق به الوطن بما رحب، إذ يكون النفي بأكثر أحواله لأسباب تتعلق بحرية الفكر، وهنا يصبح

الوطن بحجم الفكر ويصبح المنفى هو ذلك القفل المغلق على كل الحريات، في حين تتحقق الجدلية عندما يكون المنفى في الوقت ذاته منبع حريّة المنفي. وهذا ما حصل لدى أكثرِ الشعراء الذين تعرضوا للنّفي ومنهم الشّاعر الجواهري.

وتجدر الإشارةُ قبل التّعريف بالجواهريّ إلى أنّ الوطن والمنفى – بوصفهما مصطلحين – غابا عن معاجم المصطلحات، فما وجدتهما في مصطلحات جبور عبد النور أو معجم سعيد علوش أو معجم مجدي وهبة وكامل الـمهندسي أو في معاجم المصطلحات التي توافرت بين يديَّ. اللّهم إلا ما ذكره الكفويُّ في كلياته حين قال: (الوطن منزل الإقامة، والوطن الأصلي مولد الإنسان أو البلدة التي تأهل فيها) (الكفوي، 1998، ص 940)، ثم فرق بين وطن الإقامة ووطن السكن وهذا التعريف للمصطلح لا يزيد شيئاً على معاجم اللغة.

ولا يكاد جميل صليبا في معجمه الفلسفي يخرج عن هذا إلّا في تفريقه بين الوطن والأمة والدّولة يقول: (ويتميز الوطن عن الأمة والدّولة بعامل وجداني خاص، وهو الارتباط بالأرض وتقديسها لاشتمالها على قبور الأجداد) (صليبا، 1979، ج2، ص580)

ولعل مرجع ذلك أنَّ الوطن والمنفى لم يختلفا من (الجواهري م.، الديوان، 1982)حيث المعنى بين اللغة والاصطلاح.

1- لمحة موجزة عن الجواهري:

محمد مهدي الجواهريّ (1899– 1997م) شاعر كبير فحل من أقطاب الشعر العربي.

ولِدَ في النّجف الاشرف بالعراق وهو ينتمي إلى أسرة عريقة عرفت باهتمامها بالشعر والأدب، درس الجواهري البلاغة والبيان ونظم الشعر وهو في السادسةَ عشرةَ من عمره.

عمل في التّشريفات الملكية في عهد الملك فيصل الأول، وسافر إلى إيران، وفي عام 1961 تعرض لمضايقات واستفزازات زادت إلى حد الاغتيال نتيجة لآرائه الوطنية فهرب إلى براغ، وفي عام 1997 رحل إلى دار الخلود بعد قرن من النضال ودفن في دمشق (الجواهري، 1999 م، ص 5 وما بعدها)

لقد اشتهر ذكره حتّى لُقّب بشاعر العرب الأكبر، أصدر عدّة صحف هي: /الفرات/ – /الانقلاب/ – /الرأي العام/، وحاز على جائزة /اللوتس/ من اتحاد الأدباء السوفييت، وجائزة السلطان العويس. طُبع له ديوان شعره من عدّة أجزاء، وله كتب منها: /ذكرياتي/، /مختارات الجمهرة/، /من كل ديوان أجمل ما فيه/، تراجم شعراء العراق (الجبوري، 2002، ص 134–135).

أسباب المنفى عند الجواهري:

ربما تتعدّد أسباب المنفى لكن ا لمنفى هو المنفى والشّعور الذي يخلقه المنفى لا يقف عند سبب أو يتغير بتغيُّره.

لقد تعددت هذه الأسباب على الجواهري، فاضطرته إلى الخروج على كرهٍ منه وأما أنّه (جاء إلى المنفى اختياراً لا كما الناس يشاؤون اضطراراً) حسب مقال رواء الجصاني فما من أحدٍ يختار منفاه بنفسه إلا أن تضطره أسباب تحول بينه وبين وطنه إذ لو وجد الشّاعر في وطنه ما يجده في المنفى لما فكّر بالرحيل. (الجواهري 1999 م، ص 167)

ولعل الأسباب التي اضطرت الجواهري إلى الرحيل كثيرة منها:

أولاً: الأسباب السياسية:

لقد أحبَّ الجواهري الوطن، وناهض الذّل ووقف في وجه المستبد الذي لا يهدأ له بال حتّى يقوم بتصفية خصومه.

وهذا ما يجعل الجواهري يغادر مكرهاً، فهو يقول في حوار أجرته معه اعتدال رافع في مجلة العربي: (في عهد عبد الكريم قاسم نجوت بأعجوبة، خرجت من بغداد وسلمت من التّصفية الجسدية وكان مفترضاً عليَّ أن أغتبط بهذا الخلاص، لكن تفجرت قصيدة يا دجلة الخير في براغ) (رافع، 1999، ص 155)

وغير خافٍ علينا ما في هذا الحوارِ من تصريحٍ على لسان الشّاعر بقيام الحكم الظالم بمحاولة تصفيته لكنها باءت بالفشل، وهو يقول في دجلة الخير بعد مطلعها (الجواهري، الديوان، 1982، ص 279 وما بعدها):

حييتَ سفحك عن بعدٍ فحييني — يا دجلةَ الخيرِ يا أم البساتين

يَا دِجْلَةَ الخَيْرِ يا نبعاً أُفَارِقُهُ — عَلَى الكَراهَةِ بَيْنَ الحِينِ والحِينِ

يا سَكْتَةَ الموتِ يا إِعصارَ زَوْبَعَةٍ — يا خِنْجَرَ الغَدْرِ يا إِعصارَ زَيْتُونِ

ولا بدَّ أنّ الناظر في البيت الأخير يقف عند المفارقة بين خنجرِ الغدرِ وأغصان الزّيتون، فالغدر ليس من دجلة الخير حقيقةً لكنه ممن ينسب إلى دجلة الخير.

نعم، لقد كان الشّاعر على صراعٍ دائم مع المتسلطين على الحكم، وهذا الصراع هو صراع الأخلاقِ مع الرذيلة، صراعُ الضّميرِ الحي مع الضّميرِ الميت، لكنّ الشّاعر يأبى إلّا أن يرضي ضميره فهو الذي يقول (الجواهري م، الديوان، 1984، ج 2، ص 346):

كلّفتموني من الأقوالِ أصعبها ... نطقاً كما كُلّف الأعجام بالضّاد

ما ضرّني غضبُ الدّنيا بأجمعها ... أنْ كان يرضي ضميري صدق إنشادي

فقد خرج – إذن – مغاضباً قلبه مُرضياً ضميره لشدّة ما سيلقى من مرارةِ المنفى من جهة، لكنّه أراح ضميره من جهة أخرى (وكم نقم الجواهريُّ على الحاكم والمدينة طوال فترةِ اضطرابه السياسي، وهو في تحدٍّ سافرٍ مع بغداد بوصفها مصنع القرار السياسي) (اليحيى، 2001، ص 285)

ولعل أشعار المنفى – في معظمها – تمثّل هذا التّحدي، فها هو يقول في قصيدته/ يا غريب الدار/ (الجواهري الديوان، 1984، ج2، ص 440 وما بعدها):

يـا لِـبـغْـدَادَ مِـنَ الـتَّـأ ... رِيـخِ هُـزْءَاً واحْـتِـقَـارا

يـا غـريـبَ الـدَّارِ مَـا سيَّـ ... ـانِ دَعْـوَى وافـتـخـارا

بَـعُـدَ الـدَّربـانِ غـايـاً ... وطـمـوحـاً، واخـتـيـارا

واستجاشَتْ زُمَرُ البغـ ... ـيِ نُـفَـايـاتٍ خُـشَـارا

لقد تحولت حرقةُ الشّاعر إثر منفاه إلى فنٍّ موظّف في السياسة وقد استغلَّ واقعه وواقع شعبه البائس لإدانةِ الحاكمِ في وجهه السياسي، وما توجيهُ عباراتِ العتبِ والإنذار لبغداد إلا شكلٌ من أشكالِ مواجهة الحاكم وإدانته، فهو يقول في براغ (الجواهري، الديوان،1984، ج 2، ص 194–195):

يا لجبين الدّعيّ يركب متنَ الـ ـسهول علماً بأنّه غيرُ مودي

أنا في عزّة هنا غير أنّي في فؤادي ينزّ جرحُ الشريدِ

لي عتابٌ على بلادي شديدٌ وعلى الأقربين جِدَّ شديدِ

أفصقرٌ طريدةٌ لغرابٍ ونبيغٌ ضحيّة لبليدِ

يا لبغدادَ حين ينتصف التأ ريخُ من كلِّ ناكرٍ وجحودِ

حين يُروى حديثُها وحديثي وتُوازى نحوسُها بسعودي

ويجدر التذكير هنا أن الجواهريَّ إذ يهاجم بغداد فهو يعني بها بغداد الحاضر بوصفها مصدر القرار السياسي، وليس بغداد المدينة التي يكنُّ لها كلَّ شوقٍ وحنينٍ، وسنبيّن ذلك في موضعه.

نعم، لم تألُ الحكومةُ العراقيّة بعد ذلك جهداً في محاولتها اليائسة لمضايقة الجواهريّ وتكريس منفاه حتّى وصلت بها الحال إلى محاولتها سحبَ جنسيته، وما زالت أشباحُها تطارده حتّى في فكرِه وتأمّله، فنجده يختزل منفاه في حوارٍ داخليٍ في ليلةٍ من ليالي الجليدِ ببراغ في قصيدته /أطياف وأشباح/يقول (الجواهري، الديوان، 1982، ج4، ص 48-49):

ومَا لَيْلي هُنا أرِقٌ لَدِيغٌ ولاَ لَيْلِي هُنَاكَ بِسحْرٍ رَاقِ

كأنَّ مَطارِقاً خَفَقَاتُ قَلْبٍ وَلَحْنُ جنَائزٍ لَحْنُ السَّواقِ

وَتَعْشُو الذِّكْرياتُ كمَا تَغَشَّتْ ضَباباتُ الرُّؤى نَزْعَ السِّيَاقِ

تُطَارِدُني وألحَقُها دِراكاً وتَسْبِقُنِي فَأطْمَعُ باللِّحَاقِ

فالشّاعرُ لا ينفكّ يدندنُ على هذا الوترِ ويضيفُ إليه غير مرّةٍ من عباراتِ الدّعاء السّاخطة ما يجعل المتلقّي يستشفُّ مدى نقمةِ الشّاعرِ على الذين حرموه البلادَ، فأنعمْ في النّظر في قوله (الجواهري، الديوان، 1982، ج4، ص 282):

لهفي على أَمَةٍ غاضَ الضّميرُ بها	**من مدّعي العلمِ والآداب والدّين**
يا دجلة الخيرِ خلّي الموجَ مرتفعاً	**طيفاً يمرُّ وإنْ بعض الأحايين**
لعلَّ يوماً عصوفاً جارِفاً عَرِمَاً	**آتٍ فترضيك عقباه وترضيني**
لِمَن؟ وفيمَ؟ وعمّن أنت محتمِلٌ؟	**ثقل الدّياتِ من الأبكارِ والعونِ**

ربما نرى أنّ الجواهريَّ يرفع رايةَ النّضال ضد أعداء الوطن والإنسان خلال رؤيته النهر وهو الشاهد على حياة العراق وما يجري فيه من مآسٍ. وما كثرة الكلمات المشحونة بالتوتر والرفض مثل: (مرتفعاً – عصوفاً – جارفاً – عرماً) إلا تعبير عما يجيش في نفس الشّاعر من نقمة وغضب على حكام العراق، وهنا (تتحوّل المسافة بين الوطن والمنفى إلى ساحةٍ من الصراعات عبر الذاكرة والمعايشة الحارة لوطنه في أبعاده التي يتمثّلها الغرباء عادة عن أوطانهم فهو يحلم بالثورة على الطغيان السياسي في العراق ويتكرر معه السؤال / لمن؟ وفيم؟ وعمن؟ / في قصيدة دجلة الخير التي نظمها الشّاعر حين كان يمرُّ بأزمة نفسية حادّة إثر اضطرارِه إلى مغادرة العراق) (اليحيى، 2001، ص 281)

على أيّة حال لقد كُتب المنفى على الجواهريّ لكنه على الرّغم من ذلك يطمح لآمالٍ كبيرة في تحقيق ذاته في المنفى، فالمنفى عنده ليس ملاذاً للأمن والدّعة بقدر ما هو محرّضٌ على القطيعة السياسيّة

مع الحكومة وكذلك محرض على الحنين، ففي قصيدة / يا غريب الدار / يقول الجواهري(الجواهري، الديوان، 1982، ج2، ص434):

يـا غـريبَ الـدَّارِ لا تَـيْـأ	سْ وإنْ ضِـقْـتَ اصْـطِـبَـارا
يـا غـريبَ الـدَّارِ فـي قَـا	فَـلَـةٍ سَـارَتْ وسَـارَا
لِـمَـصـيـرٍ واحِـدٍ ثُـمَّ	تَـنَـاسَـتْ أيـنَ صَـار
سَـامِـحِ الـقَـوْمَ انْـتِـصَـافـاً	واخْـتَـلِـقْ مِـنْـهُ اِعْـتِـذَارا
عَـلـتَّـهُـمْ مِـثْـلُـكَ فـي مُـفْـ	ـتَـرَقِ الـدَّرْبِ حَـيَـارى
فـإذا مَـا عَـاصِـفُ الـدَّهْـ	ـرِ بِـكُـمْ أَلْـوَى وَجَـارا
فَـكُـنِ الأوثَـقَ عَـهْـدَاً	وَكُـنِ الأوفَـى ذِمـارا
سِـرْ عَـلَى نَـهْـجِكَ كالـخِـرِّ	يـتِ بـالـنَّـجْـمِ اسْـتِـنَـارا

فالشّاعر منتمٍ للجماهير ولطالما وقف معها ودافع عن بؤسها وربط مصيره بمصيرها، فشعره في المنفى لا يخلو من نَفَسٍ اجتماعيٍ وجدانيٍ حين يختلق الأعذار لقومه ويسامحهم ويترفّع عن الدنية بحقهم.

لكنه أبداً لم ولن يغيّر موقفه في أشعاره التالية ممَّن كانوا سبب بُعده.

ثانياً: الأسباب النّفسية:

قد تبدو الأسبابُ السياسيّة كافيةً وحدَها للإقناع بالمنفى، إلاّ أنّها تضع الشّاعر أمام اختباراتٍ عديدة غيرِ محمودة العواقب، وهذه الاختباراتُ تكشف أمامه تماماً زيفَ الأمور والأشخاصِ، ثم تجعله أمام أسبابٍ تقنعه بالمنفى أو بالبقاء منفياً، لكنّها هذه المرة أسباب نفسية، وخاصةً حين تضع الشّاعر في

موازنةٍ بين حياته في وطنه وكرامته، فينطبق عليه قولُ القائل (عمرو بن الأهتم، 1979، ص 127):

لعمرُك ما ضاقت بلادٌ بأهلِها ولكنَّ أحلام الرّجالِ تضيقَ

(فقد توسّط أحدُ أصدقائه ولعله عبدُ العزيز بركات نقيبُ الصحفيين العراقيين يومئذٍ لدى العهد العارفي أنْ يعودَ الشّاعرُ إلى وطنه فكان من رأي رئيسِ وزرائه يومئذٍ طاهر يحيى التكريتي أنْ يكتبَ الشّاعر طلباً بالعودة، فرفض واجداً في الطّلب ما يمسُّ كرامتَه) فنراه يقول في ذلك (الأعرجي، 2002، ص 202):

لا تأسَ إنْ لم يسعدِ الزمنُ فلقد وفيْتَ وعقّك الوطنُ

ما أسعدَ الأوثانَ في وطنٍ ينهى ويأمرُ عنده وثنُ

لقد كان الشّاعر غريباً في المنفى فما عساه أن يقول؟

لعلّه بعد ذلك سيلتفت إلى نفسه وإلى هواجسه في رحلة العمرِ الطّويلة هذه، فلقد شرع الجواهريُّ يناجي الأرقَ الذي ينتابه إثرَ هذه العواملِ النفسيّة إلّا أنّ الشّاعرَ يرحّب بالأرقِ بدلَ التبرُّم به على الرغم من ثقله، وكأنّ لسان حال الشّاعر يقول: إنْ كان لا بدّ منه فمرحباً به، ولكن هذا الترحيب كان مشوباً بألمٍ دفين، وسخريةٍ لاذعة، فهو يقول في موشحه أيّها الأرق (الجواهري، الديوان، 1984، ج5، ص 37):

مرحباً يا أيّها الأرقُ كم يدٍ أسديت لي كرما

أنت في عيني سنا ألِق أجلّيه بمسمعي نغما

مرحباً يا أيّها القلقُ وجدَ الضّليلَ فانسجما

مرحباً يا صفوةَ الزّمرِ يا مطيلاً فسحة العُمُرِ

(وسخريةُ الجواهري في الترحاب بالأرق تقوم على أنّ هذا الأرق يطيل من عمر الإنسان الذي ينقضي نصفه في النوم، فيكون الأرقُ بذلك نعمةً على الرغم مما يسببه من انهيارٍ عصبي وجسدي) (الأعرجي، 2002، ص 203)

وقد نعثر في ديوان المنفى على معاناة الأديب النّفسيّة إذ كُتب عليه أنّ يكونَ طريداً، وكأنه لا ينتمي إلى بني الإنسان ولا يمتُّ لهم بصِلة خلْقيّة أو تكوينيّة، فهو يقول في قصيدة /الغربة/ (الجواهري، الديوان، 1982، ج3، ص 348-349):

نَحْنُ مِنْ نُطْفَةٍ سِوَى نُطَفِ النّا ... سِ وَطِينٍ مِنْ غَيْرِ ذَاكَ الطِّينِ

نَحْنُ صَرْعَى الهُمُومِ في كُلِّ وَادٍ ... وضَحَايا الجَلاّدِ في كُلِّ حينِ

نَحْنُ مَنْ في سَبيلِهِمْ أَبْرِمَ السُّو ... طُ، وشِيدَتْ لَهُمْ جِبَابُ السُّجُونِ

نَحْنُ مَنْ لَقَطُوا لهم مِنْ حُثَالا ... تِ الدُّنى كُلَّ فَاجِرٍ مَأفُونِ

لقد عاش الشّاعر في قلقٍ مستمر يكاد لا ينتهي إلّا بنهاية منفاه أو عمرِه بسبب حجم المعاناة التي يكابدها ويبثّها في أكثر قصائده، وما قصيدةُ /أرح ركابك/ إلّا واحدةٌ من هذه القصائد، لكنّها تصرّح بما يعاني الشّاعر، ففيها قوله (الجواهري، الديوان، 1984، ج 2، ص 417):

حَمَلْتُ هَمَّكَ في جَنْبَيَّ أَصْهَرُهُ ... في لاعجٍ بِوَقِيدِ الشّوقِ مُنْصَهِرِ

يا دِجلةَ الخَيْرِ إنّا بَعْضُ مَنْ عَصَرتْ ... جَنْباً إلى جنبِ عَهْدٍ فَاتَ مُنْدَثِرِ

ثم تبدو هذه المعاناةُ في شكل آخر إذ تخرج على شكل حوارٍ نفسي داخلي يبثُ الشّاعر خلالَه مواجعه وآلامَ الحياة التي يواجهها، وهذا أكثرُ ما يتبدّى في قصيدةٍ له بعنوان/أرح عن صدرك/ يقول (الجواهري، الديوان، 1984، ج 2، ص 167):

أرِحْ عَنْ صَدْرِكَ الزّبَدا وَدَعْهُ يَبُثّ مَا وَجَدَا

تَرَكْتَ وَرَاءَكَ الدّنْيَا وَزُخْرفَهَا ومَا وَعَدَا

كَفَرْتُ ولَمْ أكُنْ يَوْماً بأولِ مُؤْمِنٍ جَحَدا

ودَعْ فَرْسَانَ "مَطْحَنَةٍ" خَواءٍ تُفْرِغَ العُدَدا

ألَمْ تَرَ سَيْفَ "كِيشُوتٍ" كَسَعْفِ النّخْلَةِ ارْتَعَدَا

لقد انتقد الشّاعر عصره الزّاخر بالزّيف والخداع، فهو يسمو بنفسه متعالياً بكبرياء الشّاعر، ثم نراه قد طمح إلى تجاوز النّفسِ والآخرين وانتقل من حزنه إلى التمرد على حزنه، فلا غرابةَ في ذلك بعد إذ وجد أنّ أحلامه قد تكسرت على صخرة الزمن، وما دون كيشوت الذي أراد محاربةَ الطّواحين إلّا إشارةٌ ورمزٌ لأحلام الشّاعر المتحطّمة.

ومن هنا نرى أنّ المنفى يوطّنُ صاحبَه على امتصاصِ كلِّ أنواع المعاناة التي تقف حاجزاً بينه وبين العصرِ، وتمنع اندماجه فيه بشكلٍ صحيحٍ.

ثالثاً: الأسباب الزّمانية والمكانية:

للزمان والمكان أحياناً دور البطولة في مأساة المنفى عند الجواهري، أو قد يكونان الصانعين لبعض أسباب المنفى بشكل أو بآخر، فمعاناةُ الغربةِ تبدأ داخلَ الزمان والمكان قبل أن تتبلور في المنفى، ولعل هذا المعنى هو ما قصده الشّاعر إذ وصف حالتَه عندما قال في رائعته/جبهة المجد/ (الملاس، 1985، ص 552-553):

إنّا لنَخْنُقُ في الأضْلاعِ غُرْبَتَنا وَإنْ تَنَزّتْ عَلَى أحْداقِنَا حُرَقا

مُعذّبُونَ وَجنّاتُ النّعيمِ بِنَا وعَاطِشُونَ ونَمْرِي الجَوْنَةَ الغَدَقا

حَرَّان حَيْرانَ أقْوَى في مُصَادمةٍ عَلَى السُّكوتِ وَخَيْرٌ مِنْهُ إنْ نَطَقَا

وكثيراً ما كانت هذه الأسباب الزمانية والمكانية مرتبطة بشظف العيش وقلة الموارد على الشّاعر على الرغم من أنه ابن دجلة الخير وابن العراق الكريم فهو يقول في مصداق هذه الفكرة (الجواهري، الديوان، 1984، ج 2، ص 389):

فلا تذكروا عيشي فإنّ يراعتي تَـرَفّـعُ عـن تـدويـنـه ومـدادي

أمَرُّ مِنَ المِلْحِ الأجَاجِ مَوارِدي وأوْجَعُ مِنْ شَوْكِ القَتَادةِ زَادِي

فالشّاعر يحار حيال أمر إنتاج معيشته وكفافه في بلد كبّلته فيه الظّروف وقيدته بأشد القيود الفكريّة والاجتماعيّة، فتأمّل ما يقول في قصيدته المسماة بـ/المحرقة/ والتي نظمها وهو يمرُّ بأزمة نفسيّة حادّة ذات أسباب اقتصاديّة وسياسيّة، يقول فيها (الجواهري، الديوان، 1984، ج 2، ص 477):

وليس بحرٍ من إذا رام مسلكاً تَخَوَّفَ أنْ تَرمي به مسلكاً وعْرا

وما أنْتَ بالمعطي التمرُّدَ حقَّه إذا كُنْتَ تَخْشَى أنْ تموتَ وأنْ تَعرى

فلكلّ شيءٍ ثمنه إذن، وأصعب أثمان حريّة الفكر أن يحارب المرء بلقمة عيشه، والشّاعر إذ يتحدّث عن قلّة موارده وغصّة معيشته يواجه مشكلةً أكبر يحسُّ بها ويلمسها في بلده الحبيب وتؤرقه أكثر ممّا تؤرقه لقمةُ عيشه التي باتت عليه غريزةً، ألا وهي فكرةُ الصراع الطّبقي الذي ساد في العراق، فكان لا بدّ للشاعر إذ بدأ يعاني منها أن يعبّر عن رأيه حيال هذه الفكرة وأن يقف منها موقف المنكر المستغرب. فهو يقول في قصيدة/المعري/ (الجواهري، الديوان، 1984، ج 1، ص 264-265):

آمنتُ بالله والنّورِ الذي رسمت به الشرائعَ غرًّا منهجاً لَجِبا

وصنْتُ كلَّ دعاة الحقّ عن زيغ والمصلحين الهادة العجم والعربا

وقد حمدت شفيعاً لي على رشدي أُمّاً وجدت على الإسلامِ لي وأبا

لكنَّ بي جنفاً عن وعي فلسفةٍ تقضي بأنّ البرايا صنّفت رتَبا

وأنّ من حكمةٍ أنّ يجتني رطباً فردٌ بجهد ألوفٍ تعلك الكُربا

لقد تحدّى الجواهريُّ فكرة الصراعِ الطبقي، وبين موقفه منها في آخر بيتين (وكان قد صاغ فيهما هذه الفكرة، فجاءت صياغةً هادرة متحدّية مجلجِلة اضطرّ معها الشّاعر أنْ يمهِّد لها بثلاثة أبيات بأنّه ما يزال على الإسلام وكأنّه أحسَّ بجلجلَة النّبرة التي يمكن أنْ يستعملَها الآخرون في النّيلِ منه ومن صحّة إسلامه) (الأعرجي، 2002، ص 200).

ولا يخفى أنّ الحديثَ في الأمور الطبقية والعقديّة بابُ شرٍّ كبيرٍ يُفتحُ على خائضِه فيعاني ما يعاني.

إنّ أثر المنفى في شعر الجواهري بالغ الحساسية حتّى إنّه أصبح عنده المقياس، وعدمه هو الاستثناء فكل ما يحصل معه يدفعه إلى المنفى دفعاً حتّى لكأنّ المنفى وطنه والوطن منفى، وهذا ما تكرّس لدى الشّاعرِ نتيجةً لما لمحه من تجاهلِ زملائه في اتّحادِ الأدباء له، فنراه يعاتبهم على ذلك، فهم لم يحركوا ساكناً عندما نفي، ولا طالبوا بعودته بعد ذلك.

لكنّ الجواهريَّ يرتقي بعتابه بل بإحساسه إلى الشّعب العراقي عامّةً فيحسُّ أنّه مُقابَلٌ بالتجاهل من قبله فيقول (الجواهري، الديوان، 1984، ج 5، ص 69-70):

يا نديمي لم يبق لي ما أُرجي ... غير ليتٍ... وليت زرعَ بصخر
ليت أنّي لبربرٍ أو لزنجٍ ... أتغنّى شجونَهم طول عمري
نصفَ قرنٍ ما بين دفٍّ وصنجٍ ... أتُراني كنت انتُبِذْتُ بقفرِ؟
وتجوهلْتَ مثل واوِ لعمرو ... لستُ أدري ولا المنجّم يدري

وما يبرر أنّ الجواهريَّ كان يعاتب الشّعب كاملاً هو تمنّيه أنْ يكونَ من البربر أو من الزنوج، فهذا الشعب بكلِّ مكوناته يتجاهل الجواهريّ كما نتجاهل واو عمرٍو في النطق، فما أطرفَ هذا التشبيه وما أصعب هذا الإحساس.

(لقد استحوذت الغربةُ على شطر كبير من حياة الجواهري وعادت عليه بشعرٍ وافرٍ وفنٍ رفيع منبثقين من تجربةٍ صداقة ووجدانٍ متوقّد، تلك التجربة التي تجاوزت أبعادَ النّفسِ إلى أطرافٍ متمثلة بالوطن والأصل وحتّى الخصوم وغيرهم، هؤلاء جميعاً أسهموا في خلقِ تجربةِ الغربة، وهؤلاء هم المحرّكون لشعرِ غربته والمتحركون فيه في آنٍ معاً)(الجواهري، 2004، ص 33).

لقد كان منفى الشّاعرِ هو منفى النّفسِ والوطن والحبّ والنّعيم، فكلُّ هذه الجوانب أسست لمنفاه، وكلٌّ منها عمل ما بوسعه ليكرس غربتَه التي بدت غربةً شاملة جمعها الشّاعر بقوله (الجواهري، الديوان، 1984، ج 1، ص 308):

نَحنَ السَّبايا "أربعٌ" في غُربةٍ أنَا، والهَوى، ويَدي، وكَأسُ شَرابِي

فلله درُّ المنفى كيف يكسرُ القلبَ ويُطلقُ اللّسانَ.

ملامح الانتماء إلى الوطن في شعر الجواهري:

لقد ظهر الوطن في شعر المنفى عند الجواهري مظهرَ الظّالمِ الخائن الفاسد، وبخاصةٍ عندما يتوعّد الشّاعر بغداد إذ يحكم عليها التاريخ وعلى أفعالها ضد المناضلين أمثال الجواهري كما مرَّ معنا

لكنّ هذه الصورةَ للوطن ليست الصورةَ لمقابلة للمنفى، وإنما هي تصويرٌ للوطن بوصفه مأوى للظالمين والخائنين والفاسدين، أما الصورةَ الحقيقية للوطن التي هي مقابلةٌ للمنفى فهي صورةٌ حافلة بالشّوق والحنين والاعتزاز بالماضي المجيد، فالانتماء إلى الوطن ردُّ فعلٍ طبيعي على قسوة المنفى. (فالوطن– ببعديه التاريخي والحضاري – يجسد الانتماء الحقيقي، ما عدا ذلك يغدو المرء غريباً ويبدأ القلق من أجل التحرر والانعتاق من قيد الانتماء الظالم) (اليحيى، 2001، ص 250).

لقد كان انتماء الجواهري إلى وطنه الأم أصيلاً، تقويه الأرومةُ السليمة والعروبة الحقّة، ويدعمه انتساب الشّاعرِ إلى أمته فكراً ولساناً.

(فهو يرفض أن يكون وطنه مسلوباً حريتُه، فيناغيه حيناً ويشدُّ أزره حيناً آخر وفي كلتا الحالتين انتماء، و هو ينطلق من منفى خصيبٍ رحب فيه متّسعٌ للفكر والأدب والشعر) (علوان، 1989، ص 315).

لقد كان الحديث عن انتماء الشّاعر لوطنه انفصالاً للشاعر عن إحساسه الصعب في المنفى، وتعويضاً له عن الحرمان الشّعوري الذي عاشه، فتجلّى انتماؤه في ذكرِه الحنينَ إلى الوطن تارةً و الشكوى والألمِ من المنفى القاتل تارةً أخرى، كما تجلى انتماءُ الشّاعر إلى وطنه خلالَ تأكيدِه ارتباطَه بماضيه الأصيل، وخلال تكريرِه حلمه بالعودة إلى الوطن.

وسنفرد الحديثَ لكلِّ ما ذكرنا على حدةٍ.

أولاً: الحنين إلى الوطن:

ما إنْ يصل الشّاعرَ إلى بلاد غربته الباردة حتّى تشتعلَ في قلبه جذوةُ حبٍّ للوطن وشوق إلى المرابع وحنين إلى الأهل، هذه الجذوة لا تخبو نارها ولا تندرس آثارها في القلب المفعم بالحنين طالما هو بعيد عن أرضه مهوى فؤاده، فهو من قبل زار إيران فسحرتْه طبيعتَها الخلابة، ولكنها في الوقت ذاته ذكّرته بطبيعة أرضه وخيرات وطنه فقال (الجواهري، الديوان، 1935. ص 102):

أقول وقد شاقتني الريح سحرةً ... ومن يذكرِ الأوطانَ والأهل يشتقِ

ألا هل تعود الدار بعدَ تشتُّتٍ ... ويجمعَ هذا الشّمل بعدَ تفرُّقِ

فحنينه واضح إلى أهله وأرضه، ويتكرر هذا النّسج ثانية في قصيدةٍ أخرى وهو في المكان ذاته – أي إيران– فيظهر فيها حنينه إلى المكان ذاته أيضاً – أي العراق– يقول (الجواهري، الديوان، 1935. ص 199):

سقى تُربها من ريقِ المزنِ هطّال	ديارَ بعثْنَ الشّوقَ والشّوقُ قتّال
خليليَّ لو لم ينطقِ الوجدَ لم أقل	فقد كذبت قبلي لذي الحبِ أقوال
أحنُّ إلى أرضِ العراق ويعتلي	فؤادي خفوقٌ مثلَما يخفق الآل

لقد ذكّر جمال طبيعة إيران، وجمال المقام بها الشّاعر بأهله وديارِه فاستهل القصيدة بالدعاء للأرض بالسقيا، وبذكرِ ما به من فيضِ حنين.

هذه هي حال الشّاعر، تأسره طبيعةُ المنفى الخلاّبة لكنه لا ينسى الوطن، وقد حصل معه الشيء نفسُه إذ هو في براغ فقد أسرته جماليةُ الطبيعةِ فيها وأدهشته بطولاتها وتاريخها العتيد فانبرى يقول (الجواهري، الديوان، 1984، ج 1، ص 532):

"بْرَاهـا" وأنْتِ حَصيلة الـ	أجـيـالِ مِـنْ ألَـقٍ وَخَابِي
سُـوَرُ الـبُطُولاتِ انْـبَـرَتْ	فَـتَـعَطَـلـتْ سُوَرُ الـكِـتَـابِ
والـتَّضْـحِـيَـاتُ الـصَّـامِـتَـا	تُ وعِنْدَها فَصْلُ الخِطَابِ

ولكنْ سرعانِ ما التفتِ إلى الوطن فقال مفتدياً إياه ملمحاً إلى غصّته (الجواهري، الديوان، 1984، ج 1، ص 535):

سُبْحَانَكَ الوَطَنُ المُفَدَّى	مَـا أعـزَّكَ مِـنْ جَـنَـابِ
مَـا أتْـفَـهَ الـدُّنْـيَـا إذا	غَلَبَ الـخُـنُـوعُ عَلَى الرِّقَابِ
وإذا الـكَـرامَـة جَـنّـة	بِـيـعَـتْ بمُـقْـفِـرَةٍ خَـرَابِ

(فالحنين إلى الوطن في شعر الجواهري ليس حنيناً منقطعاً إلى المكان ولا تعلقاً بالأهل والذكريات، بل هو ممزوجٌ بالألم والعنف والحقد على الواقع، وكأنّ المنفى أضحى منطلق النّضال على بُعد المشقّة بينهما) (اليحيى، 2001، ص 256).

وهو يلمح إلى هذا إذ يقول في قصيدة /أطياف وأشباح/ (الجواهري، الديوان، 1982، ج2، ص 48):

سَهِرْتُ وَطَالَ شَوْقِي لِلعِرَاقِ ... وَهَلْ يَدْنُو بَعِيدٌ بِاشْتِيَاقِ

وهل يدنيك أنك غير سالٍ ... هواك وأنّ جفنك غير راقي

وَمَا لَيْلِي هُنَا أَرَقٌ لَدِيغٌ ... ولا لَيْلِي هُنَاكَ بِسحْرٍ رَاقِ

وَلَكِنْ تُرْبَةٌ تَجْفُو وَتَحْنُو ... كَمَا حَنَتِ المَعَاطِنُ لِلنِيَاقِ

والشّاعر يضيف إلى معجم الحنين والشّوق معجماً آخر بعيداً عن الأول، لكنه يعبر عن نظرة الشّاعر إلى وطنه، وهو معجم البطولة والجبروت، فالشّاعر يصف وطنه بصفات البطولة ويضفي عليه من آيات السّحر إزاء المحن والفواجع فيقول في قصيدة /أرح ركابك/ (الجواهري، الديوان، 1984، ج 2، ص 416):

وأنْتَ يا مارِداً يَلْقى بِهامَتِه ... هَوجَ الرِياحِ ورِجْلاه لَظَى سقَرِ

يَا سَاحِرَ النَّفْسِ كَالشَّيْطَانِ يا وَطَنَاً ... يُهْوى ويُصْفَى عَلَى الوَيْلاتِ والغِيَرِ

لكن أكثر ما ظهر حنين الجواهري إلى وطنه في براغ وهو يقول: (وإني ما غنّيت الوطن بحرارةٍ وعمقٍ إلّا في براغ) (الجواهري، 1988، ج2، ص 172)

فقد غادر الشّاعر الوطن إلى براغ عام 1961م إثر مضايقات تعرّض لها في العراق كما أسلفنا، وفي براغ مرَّ الجواهريُّ بأيّامٍ صعاب عانى فيها من أزمةٍ نفسيّة حادّة، حتّى كان شتاءُ عامِ 1962م نظم /يا دجلة الخير/، هذه القصيدة الفياضة بالحنين إلى الوطن والمرابع والماء والبساتين، فكانت أروعَ شعرِه.

وهي التي يقول في مطلعها (الجواهري، الديوان، 1982، ج3، ص 289):

حَيّيْتُ سفحَك عن بُعدٍ فحيّيني ... يا دجلةَ الخيرِ يا أم البساتين

حييتَ سفحك ظمآناً ألوذُ به ... لوذَ الحمائمِ بينَ الماءِ والطّين

(وقد نشرت جريدةَ المستقبل هذه المطولةَ في بغداد عام 1963 وعلّقت عليها بالقول: رائعةُ الجواهري جاءت كمعظم روائعه الشّعرية فريدةً ممتازةً شامخةً شموخَ الثّرا، تلمسُ فيها الطبيعةَ الإنسانيةَ في ثورتها وهدوئها، في آلامها وأفراحها، في تحرُّقها وحنينها إلى ما تصبو، وإلى ما حرمت منه بسبب من الأسباب إنك تلمسُ في هذه الأبيات شوقَ الجواهريّ إلى وطنه ودجلته، وإلى ضفافها واصطفاف أمواجها، وتحسُّ خلالَ استعراضك للقصيدة كيف يتّصل الجواهريُّ بألف سببٍ وسبب، بما في هذا الشعب العظيم بحاضره ومستقبله) (مندلاوي، 2000، ص 73)

في حين يرى آخر (أنّ هذه المطولةَ التي حملت اسم نهرِ دجلة تعكس الصورةَ التقليدية للنهر في رؤية الشعراء المنفيين، أي أنّ الجواهريَّ لا يبكي غربتَه بقدر ما يبكي النهر الغريب في العراق، ودجلةُ في القصيدة هو بطل بابلي، جاهلي، عباسي، مؤرخ، مقاتل، ثوري، معاصر. لقد اختزل في دجلة سنواتِ المنفى وشعرَ المنفى) (العلوي، 1997، ص 213).

نعم، إنّ هذه القصيدة في الحقّ لَمن روائعِ شعره، وقد استهل الشّاعرُ المطلع بالتحيّة موجّهاً الخطاب بضمير المتكلّمِ في/حَيّيتُ/ إلى ضميرِ المخاطَب في/سفحكِ/ ففي ذلك دلالةٌ على شدّة ارتباط الشّاعر بأرضه، فها هو قد تاه في المنفى يفتّش عن نسمة تأتي من أرضه تحمل له عبق الفراتين، فهو لا يستشعر صفواً للحياة في المنفى، يقول (الجواهري، الديوان، 1982، ج3، ص 279-280):

إنّي وردْتُ عيونَ الماءِ صافيةً ... نبعاً فنبعاً فما كانت لترويني

يا دجلةَ الخيرِ يا أطيافَ ساحرةٍ ... يا خمرَ خابيةٍ في ظلِ عرجون

وهذا هو دأبُ الشّاعرِ الجواهريّ في منفاه في قصائده الأخرى من ترجمةٍ لخلجات نفسه ولواعجِ شوقِه على الورق، غيرَ أنّ درّتَه/دجلة الخير/جاءت موسوعةَ منفاه وغربته، فضربنا عن أكثرِ أبياتها صفحاً هنا لأنّنا نثرناها في ما مضى وسننثرُها في ما سيأتي.

ثانياً: الشّكوى والألم من المنفى:

والشّكوى هي الوجه الآخرُ للحنين، وهي أيضا وجهٌ من أوجه إظهارِ الانتماء إلى الوطن الحبيب.

فخَدينُ الحنين دائماً هو الشّكوى، فمن التّشكّي ينبع الحنينُ، والعكس صحيح إذ إنّ الحنينَ إلى الوطن والشوقَ إلى الديار يشعلان في قلبِ الشّاعر جذوةَ جذْعةً يمتد لهيبها إلى لسانه فتخرج شكوى الألم بأفصح الكَلِم،

وتلك هي حالَ كلّ غريبٍ عن الدّار والأهل، وأخصُّ هنا الغريبَ كرهاً، فكيف إذا كان الغريبَ المَنفيُّ شاعراً كالجواهريّ.

لقد صبر الجواهريُّ على البلوى، وعالج في صدره ناراً أضرمتها الشكوى، حتّى إذا ما ضاق ذرعاً بالكتمان أفصح قائلاً يشكو أمر الزمان (الجواهري، الديوان، 1935. ص 102):

شربْنا على حُكمِ الزّمان من الأذى ... كؤوساً أضرّت بالشّرابِ المعتّقِ

فمن كان يهنيه صبوحَ ومغبق ... فإنّ من البلوى صبوحي ومغبقي

عَجِبْنَا لتفويق المصائبِ حولَنا ... وقد كان محضُ العَجْبِ لو لم تُفوَّقِ

فالدّهر لا ينفكّ يؤذي الشّاعرَ وهو في المنفى إذ يكيل له كلَّ أنواعِ الهموم، والنّاظرُ في البيت الثّالث تتبيّنُ له الحكمةُ التي انطلقَتْ على لسان الجواهريّ، فأبو فراتٍ يعجب من هذه المصائبِ التي يريشُها الدّهر عليه، لكنّه يتفطّن إلى أنّ هذا هو الشغلُ الشّاغلُ للزمان، فلم العجبُ، بل الأجدرُ بنا أنْ نعجبَ من الزّمان إذا سكنَ وطابَ، وكأنّه يردد ذلك المعنى الذي أصابه قولَ القائلِ (علي بن أبي طالب، د.ت):

ليس البليةُ في أيامنا عجباً ... بل السلامةُ فيها أعْجَبُ العجبِ

وهذه الشّكوى إنْ كانت قد ظهرت في مقطّعاته فلا بدّ أن نجدها في مطولاته التي أفرد معظمها للحديث عن منفاه وأسبابِه، وحنينه فيه وشكواه منه، ويمكن أنْ نجدَ هذا في/دجلة الخير/ إذ يبثُ الشّاعرُ ما يعتلج في نفسه من منفاه الثّقيلِ إلى أرضه الحبيبة. يقول (الجواهري، الديوان، 1982، ج3، ص283):

يا دجلةَ الخيرِ منّيني بعاطفةٍ ... وألهميني سلواناً يسلّيني

لو تعلمين بأطيافي ووحشتها ... وَدِدْتِ مثي أنّ النّوم يجفوني

يا دجلةَ الخيرِ شكوى أمرها عجب ... إنَّ الّذي جئتُ أشكو منه يشكوني

لقد أراد الشّاعر أن يتخلّص من مرارة الشّكوى وألمها، لكنّه في بعض الأحيان يطلب الشّكوى ويردّدها مرحّباً باضطرام نارها في جوارحه إذ إنّها دليل صحوة قلبه وصدق حبّه، وخاصة بعد فقدان الأحبّة والأصدقاء، فهذا الألم الذي يعتمل داخله وصمة خيرٍ على صحّة حبّه وإخلاصه، وإن لم يقو عليه. يقول (الجواهري، الديوان، ج 3، ص 290):

لم أقو صبراً على شجو يرمضني — حرّان في قفص الأضلاعِ مسجونِ

تصعّدتْ آه من تلقاء فطرتها — وأُردفَت آهةٌ أخرى بـآمين

ودبَّ في القلبِ من تاموره ضرم — ما انفكَّ يثلجُ قلبي حين يصليني

صحيح أن هذه الشّكوى تطمئن الشّاعر على صحّة حبّه إلّا أنّها مرّة، وهي بكلّ بساطة وليدة مفارقات المنفى الذي يفجّر الدموع والكوابيس والأرق.

ثالثاً: الارتباط بالماضي الأصيل:

لقد وجد الشّاعر وسيلة لترسيخ انتمائه إلى وطنه الغالي، وهذه الوسيلة تجلّت في الصور والمعاني التي يعبر الشّاعر خلالها عن ماضيه المجيد وتراثه الأصيل، وكأنه لم يركن إلى أن الحنين وحده قادرٌ على توكيد ارتباطه بترابه، فراح يستذكر أمجاد بلده، ويعتزُّ بعودته إلى ماضيه والتغنّي به، حتّى ليقول (الجواهري، الديوان،، 1979، ج 2، ص 388):

لغيرِ زمانٍ كون الدّهر نزعتي — وكون أعصابي لغيرِ بلادي

فالشّاعر يحنُّ إلى عصر الازدهار الذي كانت عليه بغداد، والعصرِ العباسي خاصةً، ويعود بارتباطه المتواصل بأرضه إلى تراثه وماضيه (إذ إن التراث– في شعره– امتدادٌ تاريخي وسياسي، فالحضارة التي احتضنتها بغداد هي حضارة كليبٍ وتغلب والمثنّى وخالد وسيف دولته المأمول " عبد

الكريم قاسم "،وإنّ هؤلاء الفرسان تمتد ساحاتُهم على أرض واحدة تضم الرافدين والخليج وربا الشّام ويثرب، ومن هنا يصبح التراثُ نقطةَ وانطلاقٍ للتّغيير، وليس مصدراً للشعر) (العلوي، 1997. ص 5)

فهذا ما أراده الجواهري في قصيدته /المستنصرية/ عام1960 إذ خاطب فيها عبد الكريم قاسم بمناسبة افتتاح مدينة المستنصرية بعد ترميم بناياتها فأصبحت فيما بعد متحفاً ومزاراً يقول (الجواهري، الديوان، ج1، ص 295):

أَعِدْ مَجْدَ بَغْدادَ ومَجْدَكَ أَغْلَبُ	وَجَدِّدْ لها عَهْداً وعَهْدُكَ أَطْيَبُ
أَعِدْ مَجْدَ بَغْدادَ تُعِدْ مَجْدَ أُمَّةٍ	بِهِ الكَوْنُ يَزْهَى والحَضاراتُ تَعْجَبُ
عُمومَتُها فينا كُلَيْبٌ ووائلٌ	وأَخْوالُها مِنَّا إِيادٌ وتَغْلِبُ
كَأَنَّكَ أَهْدَاكَ المُثَنَّى وخالِدٌ	حُساميْهِما والأَصْغَرِيُّ المُهَلَّبُ
لَها بالفُراتِ السَّمْحِ حِضْنٌ يَلُفُّها	وعِنْدَ الجِبالِ الشُّمِ خَضْراءُ منكَبُ
يَمُدُّ الخَليجَ الرَّافِدَيْنِ وبَحْرَه	وبَرُّ الشَّآمِ الكُوفَتَيْنِ ويَثْرِبُ

ويظل الجواهري يردّد في هذا المعنى ويوازي بين ما كان الوطن عليه وبين ما هو قائم فيه وما سيكون عليه، ويسعف الجواهريَّ بذلك شدّةُ وعيه بالتاريخ الحضاري العربي، فهو يعود إلى لمحات مهمّة منه فيحسنُ توظيفها في مواقف وطنيّة وأخرى قوميّة، ولك أنْ تتأمّل الجواهريَّ كيف يستذكر تاريخنا في أشدّ لحظاته توهجاً، يستذكره في زمنِ الضعف والهزيمة ليؤكد ارتباطَه بهذا التاريخ، ولمآرب أخرى فهو يقول (الجواهري، الديوان، 1979، ج2، ص 528):

لا بدَّ أنْ يستردَّ الفتحَ "خالدُه" وأنْ يطلَّ على اليرموك ضرَّار
ويومَ ذي قارٍ مرجوعٌ دماً سرباً ما ظلَّ ينضحُ في يحمومه القارُ
على الخليجين سفّاحٌ سندركُه وفي "الجزائر" رهنَ الكفّ جزّارُ
وفي ذُرا القدسِ مسخٌ شاءَ خالقُه أنْ تحتمي بحِمى الأقداسِ أوضارُ

ولم يكتفِ الشّاعرُ بهذا المعنى، وإنما نراه يشير إلى تأثيرِ حضارته العربية في الحضارات الأخرى في مرحلةٍ أقلُ ما يمكن أنْ توصفَ بها هي مرحلةُ الإشراق والازدهار، ولعلّ هذا أوجُ انتماء الشّاعر لحضارته.

يقول (الجواهري، الديوان، ج1، ص 300):

هُنا انْسابَتِ الدُّنيا وراحَتْ عُصارةٌ منَ الفكرِ في كأسٍ منَ الضّادِ تُشْرَبُ
وأَضْفَى على شَرْقٍ وغَرْبٍ صباغَهُ سنَى شَفَقٍ في دجْلَةٍ يتذَوَّبُ

فهذا دجلةُ مشكاةُ الحضارة والفكر، متوشّحُ الضّاد، المسبغُ نورَه وألَقَ ازدهارِه على الحضارات الأخرى، وهذه بغدادُ المتبغددةُ المنعمةُ على كلّ من فيها، الملبسةُ تاجَ الخُيلاءِ رؤوسَ بنيها،هكذا كانا في نظرِه وكذا يريد الشّاعرُ أنْ يظلاّ مدى الحياة، يقول (الجواهري، الديوان، ج3، ص 280):

يا أمَّ بغْدادَ منْ ظَرْفٍ ومنْ غَنَجٍ مشَى التَّبغْدُدُ حتّى في الدَّهاقينِ
يا مستجمَّ (النُّواسي) الذي لَبِستْ بهِ الحضارةُ ثَوباً وَشْيَ هارونِ
يا أمَّ تلك التي من ألف ليلتِها للآن يعبق عطر في التلاحين

لقد شحن الشّاعر هذه الأبيات بالكثير من الأفكار، واختزل الحياة في بغداد كما عبر فيها عن زهو وخيلاء بغداد، واستحضر أبا نواس وهارون الرشيد.

وكلُّ اسم فيها يحيل إلى دلالة جديدة من الترف والقوة في آنٍ معاً.

ولكنّ الشّاعر في مواقف أخرى يعود بماضيه إلى أبعدَ من ذلك بكثير، وينقّب عن أمجاد وطنه منذ نشأته في العصور الغابرة عصورِ الأساطير، فيقف في حمى البابليّين، ويذكر سنحاريبَ وحمورابي وأمجادهما الخالدة فيقول (الجواهري، الديوان، ج4، ص 324):

يا دارةَ المجدِ ودارَ السّلام — بغدادَ يا عقداً فريدَ النظام

يا أمَّ نهرين استفاضا معاً — ونعمةً من عهدِ سام وحام

من عهدِ سحاريبَ إذ نينوى — يتوِجُ الحكمةَ منها النظام

وعهدِ حمورابي إذ بابلٌ — يكون بالأحكام منها احتكام

إنّها بغدادُ المجيدةُ لدةُ الخلودِ، أمُّ القوةِ والحكمة من زمن سحاريب، وسادنةُ العدل من زمن حمورابي، هكذا يراها ابنها البارُّ الجواهري، وهكذا هي.

نعم، إنّ (انتماء الجواهري إلى الوطن أصيل، وإذا كانت الأصالةُ هي الرؤية المعاصرة للتراث فإنَّ الجواهريّ لم يتعامل مع هذا التراث كمادّةٍ خام، وإنما تفاعل معه كحركة مستمرّةٍ تساهم في إثارة الحاضر وتفعيله قصدَ مواجهةِ الوضعِ الرّاهن المتردّي وتجاوزِه) (اليحي، 2002، ص 262)

لقد برّ الجواهريّ بوطنه في حديثه عن ماضيه، وإسقاطه الحديثَ على الحاضر تفاؤلاً منه بعودة المجد، وقد اختزل الجواهري علاقته بالعراق وارتباطَه الوثيق به قديماً وحديثاً في قوله (الجواهري، 1979، ج 2، ص 542):

أنا العراق.. قلبهَ ولسانُه — وفراتُه كياني منه أشطار

نعم، لقد طاب العراق به شاعراً.

رابعاً: الحلم بالعودة وموت الحلم:

والذي لا مراء فيه أنّ المنفى الذي يورث الحنين والشّوق ويفتّق الجروح بالشكوى والألمِ دون أنْ يرتّق، ثم يفتح باباً واسعاً لذكريات الشّاعرِ عن ماضيه وماضي وطنه العزيزِ يحمل في ثناياه حُلماً جميلاً بالعودة إلى الأرض واسترجاعِ ما كان قد ولّى من ذكريات طيبة مع الأهل والخلاّن، فها هو الجواهريُّ لا يفتأ يذكر حلمه بالعودة حتّى ولو حشو الكفن إذ يقول (الجواهري، ج 3، ص 279):

وأنتَ يا قارباً تلوي الرياح به ... لـيَّ النّسائمِ أطراف الأفانين

وددْتُ ذاك الشراعَ الرُّخص لو كفني ... يحاك منه غداةَ البينِ يطويني

وإذا كانت أمنيتُه في هذين البيتين أنْ يكحّلَ عينيه بمرأى القواربِ الشّراعية في دجلة وأنْ يكونَ كفنُه من أشرعتها فإنّ أمنيته في أبياتٍ أخرى هي اللقاءُ بعد التّشتّتِ والعناقُ بعد طولِ البُعد، فيقول راجياً (الجواهري، الديوان، 1935. ص 102):

ألا هل تعودَ الدّار بعدَ تشتّتٍ ... ويجمعَ هذا الشمل بعدَ تفرُّقِ

وهل ننتشي ريحَ العراقِ وهل لنا ... سبيلٌ إلى ماءِ الفرات المصفّقِ

فها هي أمانيه وأحلامه، بل هاهي أحلام كلّ غريب عن أرضه وأهله، ولكنّ الدهرَ قد لا يترك للحلمِ منفذاً ليتحقّقَ فيقضي عليه في مهده قضاءَ الفاتكِ بعدوّه، فالحلم الجميل بدأ يتضاءلُ ويتلاشى ويخبو رويداً رويداً، والعمرُ يجري بلا توقّفٍ، والحياةُ أوشكت أنْ تنتهي، والموتُ أنشبَ أظفارَه وهاهو يتربص من قرب.

نعم، هذا ما أحسَّ به الشّاعر بعدئذٍ فاستسلمَ لجبروت الدّهر قائلاً (الجواهري، 1986 م، 506):

لقد أسرى بي الأجـل وطول مسيرةٍ ملل

وطول مسيرةٍ من دو نِ غايٍ مطمعٌ خَجِل

على أنّي – لأن يُنهي غدٌ طول السُّرى– وجِل

(أما تعبير/ لقد أسرى بي الأجل / وخاصةً الفعل/ أسرى / ينمُّ على أنّ الشّاعر فقد زِمام أموره، ويعترف بأنّه وجِلٌ وخائفٌ من الغد) (الجواهري، 1999 م، ص 273)

إنّ اليأس يداهم الجواهريَّ ويتفشّى في عمره، ويعطّل قواه، فلا رجاء مع اليأسِ، ولا أمل من غيرِ قوةٍ، وهو يقول في ذلك (الجواهري ، 1998، ص 506):

أشاعَ اليأس بي عمر وكنت وكلُّه أمل

وعمرَ المرءِ فضل منى بها ما شق يحتَمل

فإنْ ولّت فلا ثقةٌ ولا حولٌ ولا قبَل

فالشّاعرَ بعدَ طولِ نضال في المنفى ينكّسُ أعلامه، ويرفعُ رايةً بيضاء تُعلنُ استسلامه فيسوقُه الدهر إلى القبور، وهكذا تشيخ وتنتهي النسور، لكنه رمى قبل ذلك بوجه الدّهر سهمه الأخير، ولسانُ حاله يقول: إنْ كانت غربتي قهراً في الحياة فسأختارها طوعاً في الممات فكانت وصيتَه أنْ يدفَن في دمشق يقول في الوصية: (أريدُ أنْ أُدفن في دمشق حتّى لو تغير نظام الحكمِ في بغداد، بغداد وطني، ودمشقُ وطنُ الأمّة) (رافع، 1999، ص 155)

وبرحيل الجواهري شَعر الكثير من المثقّفين العراقيين ولا سيما في المنفى بأنّ عموداً من أعمدةِ الشّعرِ العربي قد هوى، وأنَّ نجماً من نجومِ الثّقافة العراقية قد خبا.

نتائج البحث:

ومما تقدّم يمكن أن نستخلص بعض النتائج، ونجملُها بقولنا:

1. إنّ تجربةَ الجواهري في المنفى عميقةٌ، فالمنفى يجسد معاناتَه التي تحول بينه وبين اندماجِه بالواقع.
2. لقد كان الجواهريُّ كغيره من الشّعراء يحاول أنْ يجدَ لِما تراكم في نفسه من قلقٍ وأرقٍ وخيبةٍ متسعاً جديداً في الشّعر.
3. كان الجواهريُّ في المنفى دائماً يركّز على أسبابِ منفاه السياسيّة دون أنْ يهملَ الأسبابَ الأخرى، لأنّ الأمور السياسيةَ بالنسبة إليه هي ثالثةُ الأسافي، وكان الجواهريُّ يحاول أنْ يكمل نضالَه في الخارجِ إذ كان المنفى في أصلِه محاولةً لإخبات صوتِ الشّاعرِ.
4. لم يتأقلم الجواهريُّ مع بلاد المنفى فكان جسداً في المنفى وروحاً في الوطن يحنُّ إليه ويلمُّ بأخباره ويحرِّض شبّانَه ومناضيله، ويحثّهم على مواصلة النّضال.
5. انتماء الجواهريِ ينبع من الحسِ الوطني الواعي فهو جزء من هذه الأمة.
6. من أبرز ملامحِ الانتماء: الـ حنينُ إلى الوطن والتعلّقَ بالأرض خلالَ امتزاجِه بالنّهر والنخلة والسفح، وهذه الأمورُ ترمز إلى التجّددِ والخصب والتّسامي.
7. لم تستطع روعةُ براغ ولا المدن الغربية في المنفى أن تمحو من ذاكرة الجواهري جمال بلاده وبهاءها، وكأنّ جدليةَ الوطن والمنفى كانت سبباً في تخليدِ الأرضِ والحبِّ والجمالِ.

8. لما كان انتماء الجواهري إلى الوطن والأمة فكراً ولساناً وهويةً فإنّ عدم التّوافقِ مع الواقع المحسوسِ ملمحٌ بارزٌ من ملامحِ شعرِ المنفى عنده، وهو يعدُّ بالتالي من ملامحِ الانتماء إلى الوطن.

9. مطولةُ الشّاعرِ / يا دجلة الخير/ من روائعِ شعره، اختزل الجواهريُّ بها سنوات المنفى وشعر المنفى، وغيرت اسم دجلة التاريخي إلى دجلة الخير، فللجواهري فضل على النّهر بقدرِ ما للنّهر فضل على الجواهري.

10. عاش الجواهريُّ حياته غريباً ومات غريباً، إلاّ أنّه عاش غريباً طوعَ أمرِ الدّهرِ ومات غريباً طوعَ أمرِه.

وبعد: فتلكم أهمُّ النّتائجِ التي تكشّف عنها البحثُ، ولعلّه يكونَ قد آتى أُكُلَه أو قارب ذلك، لأنّك لا تستطيع أنْ تجهدَ بسطورٍ معدوداتٍ لتلمَّ بموضوعةِ الوطنِ والمنفى في شعرِ الجواهريِّ.

المصادر والمراجع

1. ابن منظور، محمد مكرم. (1997). لسان العرب. دار صادر.

2. أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني. (1998). الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية والأصولية. مؤسسة الرسالة.

3. الأعرجي، محمد حسين. (2002). دراسة ووثائق. دار المدى.

4. الجواهري، خيال. (2004). الجواهري مسيرة قرن. وزارة الثقافة.

5. الجواهري، خيال محمد مهدي. (1999 م). الجواهري وسيمفونية الرحيل. وزارة الثقافة.

6. الجواهري، محمد مهدي. (1935). الديوان. مطبعة الغرى.

7. الجواهري، محمد مهدي. (1979). الديوان. وزارة الثقافة.

8. الجواهري، محمد مهدي. (1982). الديوان. دار العودة.

9. الجواهري، محمد مهدي. (1984). الديوان. وزارة الثقافة.

10. الجواهري، محمد مهدي. (1986 م). الجواهري في العيون من أشعاره. دار طلاس.

11. الجواهري، محمد مهدي. (1988). ذكرياتي. دار الرافدين.

12. الجواهري، محمد مهدي. (1998). الجواهري في العيون من أشعاره. دار طلاس للدراسات والنشر.

13. الجواهري، محمد مهدي. (بلا تاريخ). الديوان. دار العودة.

14. الجبوري، كامل سلمان. (2002). معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002. دار الكتب العلمية.

15. درويش، عدنان ت. (1998). الكليات. مؤسسة الرسالة.

16. رافع، اعتدال. (1999, 3). الجواهري رحلة الألم والثورة. مجلة العربي.

17. سلمان، صباح مندلاوي. (2000). في رحاب الجواهري. دار علاء الدين.

18. صليبا، جميل. (1979). المعجم الفلسفي. دار الكتاب اللبناني.

19. العلوي، هادي. (1997). الجواهري والتراث. ملحق الثورة الثقافي5 ,72(5) ,.

20. علوان، علي. (1989). الشعر العراقي الحديث. وزارة الثقافة.

21. اليحي، فرحان. (2002). أزمة المواطنة في شعر الجواهري، دراسة تحليلية في ضوء المنهج التكاملي. اتحاد الكتاب العرب.

22. اليحيى، فرحان. (2001). أزمة المواطنة في شعر الجواهري.

23. الملاس، مصطفى. (1985). شاعر وقصيدة. دار طلاس.